



ملء العين

Llenar el ojo

Al-Andalus

Vol : XLI - 1976

Fasc . 2

حكاية إسبانية من أصل عربي

ملء العين

أريد أن أتحدث في هذه الصفحات عن عبارة شعبية في قشتالة القديمة هي «ملء العين» أو «ملاً له عينه» بمعنى راق له ، أو سره جدا ، أو أقر له عينه . معنى دقيق لما عرفته منذ الطفولة لسماعي له مرات لا تحصى في بيتي . يدفعني إلى الحديث عنه أن الجملة لا يجري استخدامها خارج قشتالة . قمت باستقصاء بسيط بطريقة منظمة بين زملاء وأصدقاء من أقاليم أخرى ، فلم أجد التعبير في أماكن كثيرة ، بعض الزملاء عرفه ، وقليلون آخرون في وسعهم فهمه .

ومع ذلك فالجملة أيضاً لدى الكلاسيكيين الإسبان (لا أعرف لها سوابق في العصر الوسيط) وكذلك لدى كتاب في أيامنا هذه يحدد التعبير قاموس الأكاديمية الملكية تحت باب «عين» ويشرحه هكذا : ملاً له عينه بشيء ما : سره كثيراً بشيء يبدو كاملاً ، أو بشيء متميز في إطاره .

ويقول قاموس الشواهد في مادة «عين» ما يلي : أترع أو ملاً العين : جملة يفهم منها أن شيئاً كاملاً سره كثيراً ، أو شيئاً متميزاً في إطاره ، وفي اللاتينية

Maximé arridére . omnino

Placère . Cerv . 8 . pl 260.

زين البائع حماره ، فملاً عين الأشتوري ، ولدى كيبيدو في انترمييه : تسأل المالكة: من هذا ؟ فإنه قد ملاً عيني .

ليس في ذرعنا أن نشكو من الشواهد التي تتضمن التحديد ، فالعبارات اللاتينية التي تعبر عن تلك الفكرة في القشتالية لا تدع للشك مجالاً ، في استقلال الثانية عن الأولى ، حسبنا فقط أن نراجع المادة «عين» في العمل لكي نقف على الجهد الفعلي الذي قام به المحررون لذكر العبارات اللاتينية المناظرة لكل تعبير في القشتالية ، والتي نخون الصلة الحميمة ، وأكثر من ذلك في التعبير الحرفي، فالجملـة «ملء العين» ليس لها أصل لاتيني .

بين أمثلة العبارات المصوغة مع الفعل «أترع» المشروحة في ذخيرة كوبروبياس تبدو جملتنا هكذا : «أترع العين بشيء» مشروحة بما يلي : «سره» وبعد ذلك يستخدم المعنى «أسعده» بمعنى أنه ليس في الوسع إعطاؤه أكثر من ذلك .

إحدى هذه «المواد العامية ، سيئة الإيقاع ، هابطة ، رديئة المعنى ، وقحة ، عارية ، دون حواش ، غامضة دون توضيح» والتي يوصي بدرو اسبنوسا بمنعها جملة «لا تترع عيني» على التحديد .

بين الجمل التي جمعها كوبروبياس في خاتمة معجمه الممتاز يبدو أيضاً الفعل القديم أترع ما زال حيا بدلا من ملأ الذي أحلى له مكانه ، يقول ما يلي : أترع العين؛ سره شيء ما لم يترع عينه : أي لم يسره .

كان ثمة تعبير شعبي قديم يوضحه مثل من الأمثلة التي جمعها مورسن بدرو بلاس في القرن السادس عشر هو «عجة رقيقة تفرعيني ، وتخرج روحي» ويبدو كذلك بين أمثلة القومندادور الإغريقي «عجة رقيقة تفرعيني ، وتخرج روحي» مع هذا الشرح : لأنها تؤكل بشهية ، وتبدد الدراهم .

لا أعرف شواهد أخرى حتى القرن العشرين ، يستخدم ميغيل دليبيس -
ومعروف أنه من بلد الوليد ، وكاتب قشتالي - في كتابه «حكايات قديمة من قشتالة
القديمة ، مع تحريف المثل ، وهو كما يبدو مثل في السياق التالي :

كانت روسا ماري فتاة نظيفة ، مجتهدة ، كانت تملأ عين عمتهما مارثيلينا ، كانت
العمة مارثيلينا تقول لي : عليك بالبحث عن امرأة للمنزل ، وبما أن أحدا لا يلتفت ،
كانت تضيف : انظر هنالك تر روسا ماري ، في اليوم الذي تكون فيه شابا عليك
بالزواج بها .

يذكر مانويل أرثي في «وصية في الجبل» الجملة في موقف مشابه إلى حد لموقف
دليبيس الذي رأيناه الآن :

للأسف أننا نموت ، ونترك المال لزوجة تتزوج بعد شهرين بمن يملأ عينها .
لقد رحلت الجملة إلى أمريكا ، ففي تلك الرواية الرائعة «الناس اللي تحت»
للمكسيكي ماريانو أثويلا ، الشاهد على الثورة المكسيكية ، بوصفه طيبيا بجوار
بانشوييا ، نجد الجملة تبدو في حوار حي ، وتثير الإعجاب في سياقها :

انظر ، لماذا تقيدني امرأة

إذا هي لم تبدأ ، فلن أحمس - يتنهد -

هنالك كاميلا ، تلك الفتاة القروية ، البنت الدميمة

غير أنها تبدو ، وكأنها تملأ عيني .

الكناية «ملء العين» بمعناها الدقيق الذي تعنيه في الإسبانية والذي تحدده
بوضوح المعاجم والعبارات التي رأيناها موجودة في اللغة العربية في العصر الوسيط
والحديث : يشرح لابين ملأ العين : «سره وأرضاه» .

مستشهدا بيت من الشعر في تاج العروس . والتركيب الشائع أكثر هو استخدام المفعول به المتصل بضمير الملكية «عينه» كما تقتضي أيضاً طبيعة اللغة الإنجليزية his eye . ويستشهد قاموس كاز يمسك بصيغة ملأ عينه . أي بلغ به غاية الرضا .

لكن لندع المعاجم جانبا إذ هي مقابر للكلمات ، ولنر النصوص .

في كتاب أندلسي شديد الأهمية - يبدو أنه لم يثر اهتمام أحد - هو كتاب الذخائر والأعلاق لابن سلام الباهلي (توفي 1149) يذكر مؤلفه حكاية تتعلق بالخليفة العباسي المعتصم بالله وقد حُكم بالإعدام - في حضرته - على رجل واجه الموت بشجاعة : وكان رجلا وسيما يملأ العين .

ويقول الكاتب والشاعر أبو البقاء الرندي المشهور في تاريخ الأدب الإسباني باسم (Abulbeca de Ronda : 1204 - 1286) في رسالة يرد فيها على صديقه : «بيضاء كاللجين ، ملء القلب والعين» .

ويحكي لنا المقرئ في نفح الطيب كيف استطاع علي بن سعيد أن يحظى بعطف الأمير الحفصي أبي عبد الله المستنصر - الذي حكم بالموت على ابن الأبار - وكان قد سخط على الرئيس ابن الحسين . وقبض على دياره وأمواله وصيره كالمحبوس ، فكتب إليه رقعة يطلب الاجتماع به في مصلحة للدولة ، فأحضره وسأله فأخبره بأن أباه صنع دارا عظيمة تحت الأرض ، وأودع فيها من أنواع المال والسلاح ما جعله عدة وذخيرة لسلطانه إلى أن يقول : ففرح السلطان وبادر إلى تلك الدار فرأى ما ملأ عينه وسر قلبه وخرج الرئيس ابن الحسين ، والخيل تجلب أمامه وبدر الأموال بين يديه .

ويجمع دوزي في Lettre à . M . Fleicher ، المذكور آنفا جملة ابن الأثير (وصله بما ملأ عينه) لم أستطع التثبت من هذه الجملة ، ويبدو أنها تعني سره . وفي الملحق

ذكرها من جديد ، وترجم العبارة بكلمة Plaire ، ويذكر فيه هكذا ، وإن كان لم يترجم نصاً آخر للعمراني : « كان كاتباً بليغاً ، فصيحاً ، كريماً ، يملأ العين ، العين والقلب » . مرة أخرى يجمع بين العين والقلب .

في رسالة مهمة ترجمتها ، وأنظر نشرها قريباً ، يقول الكاتب محمد بن عبد الله ابن داود الغافقي (توفي 1287) يحكي عن زيارته لأشبيلية : « فشاهدت من المباني العتيقة والمنارة الأنيقة ما يملأ أعين النظار » .

وفي ترجمة شخصية مشهورة في غرناطة النصرية ، هي شخصية الشاعر الوزير محمد بن الحكيم اللخمي ، وترجمته في الإحاطة يقول ابن الخطيب قبل أن يورد قصيدته التي أنشدها في بلده رندة بحضرة السلطان : « وهو إذك فتى يملأ العين أمهة ، ويستميل القلوب لباقة » .

ويكرر ابن الخطيب نفسه حين ترجم للسلطان الغرناطي نصر الملقب بأبي الجيوش في الإحاطة ، فقرة من كتاب آخر له هو « طرفة العصر في أخبار الملوك من بني نصر » يقدمه هكذا : كان فتى يملأ العيون حسناً ، وتمام صورة .

ما تزال جملة « ملأ العين » حية في الأدب العربي الحديث ، فمعجم إلياس يذكر ملأ عينه بمعنى أرضاه ، وسره دون أن يصف الجملة بأنها اصطلاح حديث أو تعبير مصري ، وقد أكد لي بعض الأساتذة والطلاب من فلسطين وسوريا ومصر أن العبارة تستعمل في الكلام العادي .

لم يتهيأ لي للأسف أمثلة من الأدب العربي المعاصر سوى مثلين عثرت عليهما أثناء قراءتي لكتاب الكاتب المصري الكبير الذي رحل مؤخرًا عباس محمود العقاد ، أولهما في مستهل الكتاب : « والحق أنه لا فضاء حيث يكون النور ، وكيف يكون

فضاء ما يملأ العينين ويملاً الروح ، ويصل الأرض بالسماء؟» ويقول فيما بعد؟
«ماذا تستبيح ، وماذا تحرم وأنت تنظر من هذه النافذة؟ أتستطيع أن تملأ عينيك من
شيء غيرك كما قال الأديب الحجازي؟» .

يذكر الكاتب في مثله الأخير - في دقة - مثلاً قديماً ذكره الميداني ونشره فريتاج
في «الأمثال العربية»: «ملأ عينك شيء غيرك» .

ما تزال حية عبارة «ملأ العين» (إذا كانت غير مختلفة) لأنها مشتقة - فيما أعتقد
- من حديث أو أثر نبوي ، حدث له تحريف لتحوّله إلى مثل شعبي يحتفظ بعلاقة
وثقى بمثل الميداني الذي رأيناه آنفاً ، إحدى صور هذه التعبيرات التي استطعنا أن
نراها أقدم ، نشرها وشرحها كوركارد : ما يملأ عين [بن] آدم إلا التراب .

يقصد أن المرء يظل طموحاً وطامعاً إلى أن يودع التراب ، والتعبير المألوف (عينه
مليان) = عينه مليئة ، أو ينال كل دواعي الشهوة والرغبة ، «وهذا لا يملأ عينه» أو
يرضيه ، هذا المعنى المجازي يتضمنه المثل السائر الذي يجيء بمعنى «يملاً عينه»
ويعني هنا تراب القبر ، .. وحديث للنبي ﷺ مشابه لهذا المثل في المعنى يقول ما يلي:

لا يملأ جوف [١] بن آدم إلا التراب .

يشير المثل الكلاسيكي لدى الميداني إلى الخطيئة العظمى للجسد ، والمثل الشعبي
إلى الطمع وعدم الرضا القابع في بني آدم ، واللذين لا ينتهيان إلا بالموت ، بمعنى
حين «يملاً العين» تراب القبر ، بالمعنى الحقيقي والمجازي ، نرى المثل مشروحا من
بوركارد في المجموعة القيمة التي ألفها العلامة أحمد تيمور ، ويذكر أيضاً مثلاً آخر
يشابه القول المأثور :

جفن العين جراب ما يملاه إلا التراب

المثل في الصورة ذاتها - مع تغييرات لهجية طفيفة - مجرد في مجموعات مختلفة من الأمثال (على الأقل في العراق ولبنان والكويت والجزائر والمغرب).

حديث محمد ﷺ، الذي ذكره بوركارد في شرحه للمثل وبه تشابه مع المثل في الواقع - عثرت عليه - مع تغييرات لها دلالة - نراها فيما بعد - في تطابقات فنسك حتى ثمان عشرة مرة، يذكره منسوباً لابن حنبل (من بين كبار رجال الحديث)، ومع ذلك أعتقد أن دلالة المثل وربما أصل التعبير (ملء العين) ينبغي البحث عنه في حديث آخر، جمعه أيضاً فنسك، مذكور فقط في صحيح مسلم، وهو: فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً بتلك القبضة. كان عسيراً عليّ أن أجد هذا الحديث في باب الجهاد أو الحرب المقدسة في «الصحيح» وهي الرواية الوحيدة التي لم تنتهياً للطبعة التي استند عليها فنسك.

إطار حديثنا الذي رواه الابن عن ابن الأكوغ الشاهد الرئيسي للحادث، والحلقة الأولى في سلسلة الرواة، مؤسس على رواية غزوة حنين التي أحرز النصر فيها محمد ضد المشركين في 8 يناير سنة 630، بعد قليل من فتحه مكة. يحكي ابن الأكوغ الذي قام بنشاط فعال في الغزوة، حيث عاد القهقري بين المسلمين في تشعث بعد هجمة غير متوقعة من العدو بعد نصره المتوقع.

يحكي الراوي: غزونا مع رسول الله ﷺ حينما فلما واجهنا العدو تقدمت فأعلو ثنية فاستقبلني رجل من المشركين فأرميه بسهم وتوارى عني، فما دريت ما صنع، ثم نظرت إلى القوم فإذا هم قد طلوعوا من ثنية أخرى فالتقوا هم وصحابة رسول الله ﷺ فولى أصحاب رسول الله ﷺ وأرجع منهم ما وعلى بردتان متزرا بإحدهما مرتدياً بالأخرى، قال، فاستطلق إزارى فجمعتها جميعاً ومررت على النبي ﷺ وأنا منهزم

وهو على بغلته الشهباء فقال: «لقد رأى ابن الأكوع فزعا» فلما غشوا رسول الله ﷺ نزل عن البغلة، ثم قبض قبضة من تراب من الأرض واستقبل به وجوههم وقال «شاهت الوجوه» فلما خلى الله منهم إنسانا إلا ملاء عينيه ترابا من تلك القبضة فولوا مدبرين، فهزمهم الله، وقسم رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين.

لم أعر على هذا الحديث بين الروايات التي جمعها الرواة المسلمون عن مشاركين آخرين في المعركة، كلهم يتفقون في أن النبي ترجل عن بغلته (تذكر الرواية أنها رمادية، بيضاء، وبعضها يذكر اسمها دلدل) وقبض قبضة من التراب أو بعض الحصى (بعض الروايات يقول ثلاث مرات) أو أعطيت له، ورمى بها في وجهه (أو في أعين) الأعداء، صائحا، (أو صاح آخر) أو دعا عليهم، مما كان له الأثر في هرب المشركين أو هزيمتهم.

هذا الفعل من محمد، إلقاء التراب على العدو - عمل ذو دلالة تصويرية صنعه أيضا في غزوة بدر - يذكره القرآن في سورة الأنفال حين قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَئِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾.

المصنفات التي أشارت إلى هذه المسألة، - سواء كتب المؤرخين أو كتب شيوخ المفسرين - التي استشرتها (دون غرض الاستقصاء بالطبع - أو التي لم تجمع كلمات محمد حين رمى التراب (أو الحصى) في وجوه الأعداء، أو كانت مختلفة في جوهرها - لم تحتو - في أي حالة - على تعبير «ملء العين»: مثلا «رمى في أعينهم جميعا الحصى» أو «لم يبق واحد منهم إلا اشتكى من الرماد في عينه»، أو «لم يبق رجل إلا ودخل التراب في عينه» أو «لم تبق عين إلا ودخلها التراب» أو «رمى في وجوههم التراب».

فسر المفسرون الآية القرآنية تفسيرات كثيرة متعددة، ويتفقون عامة في تلك النقطة: فالله هو الذي صنع المعجزة في هزيمة المشركين، ولا نضع أنفسنا في

مشكلات ، ولنعد إلى صحيح مسلم أحد كتب الصحاح الكبيرة التي رتبت الأحاديث حسب موضوعاتها ، ويبدو أنه الوحيد الذي جمع هذه العبارة : «فما خلق الله منهم إنسانا إلا ملاء عينه ترابا» . إن الاستغناء عن الكلمات التي تحتها خط معناه حذف العبارة من سياقها التاريخي ، ومعنى هذا استطاعة الوصول بسهولة إلى عبارة مأثورة يقدمها لنا المثل الشعبي ، الذي يعبر عنه هكذا : لا ، أو ما يملأ عين الإنسان (ابن آدم) إلا التراب .

لكن هذا المثل ليس مثلاً على وجه الدقة بل هو «حديث» ذكره بوركارد وجمعه فنسك في صيغة «ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب» الذي أشرنا إليه آنفاً . يذكر فنسك خمسة وعشرين موضعاً يذكر فيها هذا الحديث (فقط في الصحاح الكبرى) ويذكر التعبيرات يسد بدلاً من يملأ ، وفم أو عين بدلاً من جوف . ولم أتمسك لدراسة هذه التغييرات في تلك الصيغ المتعددة ، لذا أنتقل إلى نقطة أخرى .

في قصيدة مدح نظمها ابن زيدون ، وجهها إلى أبي الحزم بن جهور ، يتحدث الشاعر إلى الرجل الذي تولى مقاليد الأمور في قرطبة بعد سقوط الخلافة ، يصفه جالسا ، جميلا ، مبتسما ، مليئا بالرحمة والجلال ، فيقول له :

ملأ النواظر صامتا ، ولربما ملأ المسامع سائلا ومجيبا

بيت آخر لابن شرف - ذكره ابن بسام - معلقا على القصيدة التي فرغنا توًّا من ذكر بيت منها - من قصيدة يمدح بها أمير القيروان . وفي البيت تعبير قوي عن الفكرة :

سل عنه ، وانطق به ، وانظر إليه نجد ملء المسامع والأفواه والمقل

لم يستخدم أي من البيتين كلمة «عين» . ذكر ابن زيدون «نواظر» جمع «ناظرة» واستخدم ابن شرف مرادفاً آخر «مقل» جمع مقلة ، ربما هرباً من كلمة شائعة في الحديث العادي ، تبدو غير شعرية .

وفي إيجاز ، فإن التعبير الإسباني «ملاء عينه» يناظر تماما في العربية ما يبدو أنه ترجمة حرفية «ملاء العين» و«ملاء عينه» ، تلك الأخيرة تستعمل أحيانا - كما رأينا - مؤيدة بتعبير مناظر : سر قلبه ، ربح قلبه ، أو تصلح مفعولا مزدوجا : ملاء العين والقلب ، والعين والنفس ، ولنحلل بعض الشيء استنادا إلى العبارات العربية التي رأيناها : «ملاء العين» بصفة خاصة الجمال الظاهري ، «ملاء السمع» جمال الصوت ، أو عبارة طلية .

إنه حديث نبوي ، أصل محتمل لآخر ، قد حظى بانتشار أوسع ، قد غدا في النهاية طائفة من الأمثال التي رأينا منها نماذج قليلة ، ويبدو أن الجملة العربية حظيت بحيوية أكبر مما حظيت به في الإسبانية ، وصلحت تعبيرا عن أفكار تستخدم المعنى الحقيقي والمجازي .

البناء البسيط «ملاء العين» يعني تماما "llenar el ojo" راق له ، سره شيء ، أو أحيانا كثيرة سره إنسان «يروق للعين» في هذا المعنى .

أليس في الوسع أن نفكر في أن «ملاء العين» - مع الأخذ في الاعتبار أنه ليس له مناظر في اللغات الرومانية - هو في بساطة جملة طبق الأصل من العربية ؟